التقنيات التعويضية في قصيدة النثر/ "بما يناسب حالتك"

لمحمد سعد شحاته أنموذجا

ا.م.د. وسن حسين ليلو عبدالله

أستاذ مساعد في النقد الحديث

الجامعة المستنصرية/ كلية التربية الأساسية/ قسم اللغة العربية

noorhmd77@gmail.com

المقدمة

التجريبية في عالم الأدب حاضنة للإبداع، وأغلب الفنون الأدبية المستحدثة أو المتمردة على النظام العروضي كانت مشاريع تجريبية قبل أن يلحقها التقعيد، وأن كانت قصيدة النثر هذا الجنس المتمرد على الأجناس الشعرية نظاما مقننا، لكان التجريب عملا أوليا مقترنا بمصطلح الريادة كما حدث للشعر الحر، ولكن لقصيدة النثر أثر الإبداع الفعلي، إذ ليس هناك أخطر من أن يجازف المبدع من غير أدوات تقنينية، فلا يوجد نظام موسيقي ولا شكل يكبح جماح المغامرة، ولذلك يخطئ من يظن أن نظم قصيدة نثرية هو عمل يسير، وكان بريتون محقا تماما عندما قال" ما من شيء أصعب هذه الأيام من أن يكون الإنسان شاعر قصيدة نثر)) (1).....فكل قصيدة نثرية كون مغلق وفعل تجريبي خاص بمبدع النص، ويبقى عنصر الامتياز فيها عبقرية المبدع في إيجاد تقنيات تعويضية وبدائل للنمطية الصوتية، تجعلنا نحكم في النهاية أن نتاجه ينتمي إلى قصيدة النثر، ولذلك لا يوجد اسم نجير له الريادة فيها .

تحاول قصيدة النثر العربية الآن أن تمتلك خصوصية تميزها عن مثيلاتها ، ولذلك أغلب النقاد العرب الذين نظروا لها وأن استعانوا برؤية سوزان برنار في كتابها " قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا " في تحديد ماهية هذا الجنس حاولوا إرساء مبدأ خصوصيتها، لأن قصيدة النثر ما ظهرت إلا لدواعي العصر الذي احتاج إلى نص مغاير يعبر عن ذاته بحرية تامة من غير قيود شكلية.

(2) فظهر اللاشكل و اللاقاعدة في الكتابة الشعرية كفعل جماعي وأصبحت كل قصيدة نثرية كون خاص و" جنس أدبي نثري يستعير بعض خصائص الشعر كالإيقاع والخيال والعاطفة واللغة المجازية المكتنزة بالمعاني والصور " (3) .

بقي أن نعرف أن التمرد على الشكل الكتابي والنمطية الصوتية لا يخرج النص عن شعريته إذ إن الدفق الموسيقي لا يتوقف بالنمطية التكرارية، فهناك المعنى المعبر عنه بصوت مشحون بالدلالة هوا لذي يخلق داخل النص توازنا وتوازيا صوتيا بعملية اتصال وانفصال مقصودة داخل البنية و يعطي نسقا بديلا عن النمطية الموسيقية، وهكذا خرجت قصيدة النثر ببنائها الجملي من مأزق النصية .

مدخل تمهيدي

تعد فرنسا الحاضنة الأولى لظهور قصيدة النثر، و يرى النقاد ودارسو الأدب أن للشاعر بودلير الريادة، وذلك من خلال مجموعة القصائد التي نظمها ونشرها في الصحف الأدبية قبل جمعها بديوانه الموسوم بـ(سأم باريس)، والذي صدر في العام 1869م، يذكر في مقدمته الشاعر أنه يحلم " بمعجزة نثر شعري، موسيقى دون وزن ودون قافية، بالغ السلاسة و المرونة بحيث يمكنه التكيف مع الحركات الغنائية للروح و مع تموجات الهواجس و انتفاضات الوجدان"(4). وهذا لا يعني عدم وجود إرهاصات شعرية، وبواكير أدبية قد ظهرت سابقا(5).

وشهد القرن التاسع تزايدا ملحوظا في حمل متبنيات النظم الشعري باتجاه قصيدة النثر من خلال مجموعة من الشعراء في فرنسا، وألمانيا، وبريطانيا، (6) لسببين: الأول كان لجهود الكاتب الأمريكي أدغار ألن بو أثرا كبيرا ولاسيما عند بودلير، إذ ترى سوزان برنار أنَّ هذا الأثر يظهر واضحا في عدد من قصائد (سأم باريس) التي عدت أشبه بالقص السردي القصير التي كان بو ينظمها من قبل(7). والسبب الثاني تمثل في تشجيع المغامرين لهذا النظم الجديد والذي كانت لحركة الترجمة أثر بارز في إثبات إمكانية وجود الشعر من دون الاستعانة بأي قيد من قيود النظم، فقد " كانت الترجمة توضح تلك الحقيقة ...إنَّ القافية و الوزن هما ليس كل شيء في القصيدة، وأن اختيار الموضوع ، والغنائية و الصور، و بناء القصيدة أو ما يسميه بو (وحدة الانطباع) هي عناصر قادرة على إثارة الصدمة الشعرية الخفيفة "(8). ويعد الشاعر آلوزيوزيس "الخالق الحقيقي لقصيدة النثر نوعا أدبيا" وفق قول برنار(9).

ثم حققت قصيدة النثر مع رامبو بعد ذلك تمظهرات واضحة ومتعددة كان لها الأثر الفاعل في النتاج الشعري العشريني (10)، إذ أخذت ملمحا متميزا في ترسيخ هذا الجنس الأدبي في مختلف أنحاء العالم.

ووصولا إلى الساحة الأدبية العربية فأنَّ الجهود التي قام بها الأدباء والشعراء ولاسيما أصحاب مجلة (شعر) البيروتية التي صدرت عام 1957م تعد نواة التأسيس لقصيدة النثر العربية في تبنيهم الأنموذج الأمثل لها بعد جهود عدة أخذت على عاتقها التحرر من قيد الأوزان العروضية. والعوض عنها بلغة شعرية ذات شحنات صوتية صورية لا تستعين بالوزن والقافية .

ويبدو أنْ الانطلاقة الحقيقية لكتابة الشعر المنثور قد تحققت مع النصوص التي شرع أمين الريحاني بنظمها مطلع القرن الماضي و تحديدا في العام 1905م[11]، إذ تعد هذه النصوص نقطة تحول كبرى في محاولات كتابة الشعر والتحرر من الأوزان العروضية، ولاسيما متبنيات الشعر المنثور عند أمين الريحاني وجبران خليل جبران [12].

وفي أربعينيات القرن الماضي بدأت محاولات كتابة الشعر المتحرر من المحددات العروضية تأخذ منحى جديدا بعد ظهور عدد من المجلات التي احتضنت تجارب شعرائه، كمجلة (الأديب) البيروتية[13].

ومجلة (شعر) البيروتية أيضا التي أسسها يوسف الخال عام 1957م، والتي انضوى عدد منهم تحت لوائها [14].

وبذلك تبلورت محاولات النظم الشعري المتحرر عند أدونيس، وأنسي الحاج وكان جهدهما التأسيسي واضحا ومتميزا في تحديد السمات الفنية التي تأطرت بها قصيدة النثر، إذ أشار أدونيس إلى الوحدة العضوية، و المجانية (اللازمنية)، و الكثافة، بوصفها خصائص وسمات عامة لهذا النمط الشعري الجديد[15]. في حين تحدث أنسي الحاج عن الاشتراطات الفنية المتمثلة بالإيجاز، و التوهج، و المجانية، وتجدر الإشارة إلى أن هذه السمات الفنية قد تولدت نتيجة تأثرهما بالكتابات النقدية التي جاءت بها سوزان برنار[16].

وبعد مجلة (شعر)، أسهمت مجلات عربية أخرى في توظيف وبلورة تجربة كتابة قصيدة النثر في الوطن العربي، منها مجلة (حوار) التي أصدرها الشاعر توفيق صايغ في العام 1962م، وكانت تنشر القصائد والدراسات الأدبية التي تتمحور عن هذا النمط الشعري الجديد(قصيدة النثر)، التي

بدأت تتضاءل بعد ذلك من منتصف الستينيات، وحتى منتصف الثمانينيات؛ لأسباب مختلفة منها ظهور الشعر الموسوم بـ (الشعر الثوري الحديث) ، وبعدها سرعان ما عادت قصيدة النثر للانطلاق من جديد وبقوة كادت معها إزاحة أشكال التعبير الشعري الأخرى [17] .

الإجراء التطبيقي

" بما يُناسب حالتَك"!

قصائد نثر للشاعر المصري د. محمد سعد شحاته (18)، في ديوان يحمل العنوان نفسه يقع في (120) ورقة، ويضم (48) قصيدة، وللشاعر دواوين شعرية في قصيدة النثر منها " هوامش خارج متن " و " أيام عادية " وقصائد أخرى ما زالت مخطوطة لم تجمع بديوان .

كتب الشاعر هذه القصيدة أبان أحداث الثورة المصرية في 25 يناير 2011، والقصيدة تتألف من أربعة مقاطع " يسقط، إرهاصات، اسمه الحقيقي وجهك، فرصة سعيدة" اتكأ الشاعر في مضمونها على استيراد رمزية الأنثى " البشارة" كمعادل موضوعي للثورة، وهذه الدلالة فرضت نفسها وبشدة في جسد النص، لان حكما تعسفيا امتد لأكثر من ثلاثين عاما، احتاج الإيمان بأفوله إلى استحضار مكون رمزي عال.

المقطع الأول : قصيدة يسقط

في أي تحليل لقصيدة نثرية تجذبنا دائما تلك البدائل التعويضية التي تحل الإشكالية الموسيقية، وأول ما يجذبنا في هذا المقطع توظيفه لعين الكاميرا في تقطيع مشهد استحضار الرمز واقترانه بواقع أحداث التحرير في 25 يناير ..

خيالك الذي في الرمل، قال: " لا صورة ستبقى غيري"

طيفك الذي في القلب، قال: " تسقط الذكريات القديمة"

ضحكتك التي ترن في الأذن. طغت على صوت الرصاص البلاستيكي

وبسمتك التي أضاءت ليل الخامس والعشرين من يناير. محت آثار دخان القنابل (19)

هذا النص متخم بدلالته الرمزية العالية، فرمزية الأنثى البشارة أصبح معادلا للحرية والانعتاق الذي يتمثل ((من خلال كون هذا المعادل هو السبيل الوحيد للتعبير عن العاطفة في شكل فني، أي بخلق مجموعة من الأشياء أو المواقف أو الأحداث تكون ((معادلا)) او قالبا للعاطفة . وبهذه الطريقة ينجو الشاعر من التعبير عن عواطفه بشكل مباشر))(20)، وفي هذه البنية الجملية اتكأ الشاعر على ملء بياض الصفحة برسم تقنيات متعددة مثل التقطيع وعلامات الترقيم ثم عاد ليؤسس بنية تواز عمودية بتكرار الصور من خلال إعادة تشكيل المشهد بعطف نسقي :

لكن خيالك الذي على الرمل في الصورة

وطيفك البعيد

وضحكتك التي ترن في الأذن

وبسمتك التي أضاءت الليل

كلهم قالوا .. عندما أردت أن أقول أحبك

" يسقط النظام" (21)

إن أهم موطن للإجادة في هذا المقطع القفلة ، أولا : كلهم قالوا ف (الواو) دلالة الجمع تشير إلى درجة عالية من الوعي بالواقع مكونة مشهدا رؤيويا يجمع بين الفردية التي ما تلبث أن تنادي

بصوت الجماعة من خلال خلق رؤية للعالم لا ترتبط بالشاعر وحده وإنما بشريحة الشعب أجمع ((فرؤية العالم ظاهرة فردية في تأسيسها، إلا إنها ذات توجه جمعي في غايتها داخل النص)) (22) وثانيا " يسقط النظام "التي أغلقت الدائرة تماما لتلاقي عتبة المقطع " يسقط " إذا إن هذا الفعل الدينامي أطّر المقطع فقط من دون أن يلامس البنية، وجعل للأفعال الارتدادية الماضية طاقة استحضار الرمز الذي أحتل بنية القصيدة كاملة، ونلاحظ أيضا أن مقولات الرمز اكتسبت سمة الحقيقة من خلال تأطيرها بأقواس تنصيصية.

المقطع الثاني: قصيدة إرهاصات

المقطع الثاني من القصيدة هو انتقال بعين الكاميرا إلى مشهد واقعي في ميدان التحرير، ويسيطر على المقطع هذا الاسترسال باللغة الواصفة لفعل الاعتصام والحشد البشري والإيمان الجمعي بقضية مشروعة، واللغة في هذا المقطع كانت مشحونة بالانفعال ولعل الصور الجزئية كانت تتحكم في تكوينات المشهد في استرداد الذات مرة أخرى بفعل ولادة جديدة :

هذه إرهاصات ما قبل الثورة

زلازل تجتاح عوالم النفوس كي تحركها

وتعيد تشكيلها وفق أوليات جديدة

تصل المنبت بما انقطعت صلته به

تعطيه أرضا يقطعها

وظهرا يبقيه

عندما يقف مستندا على عمود إنارة في التحرير

كي يهتف وسط الملايين..(23)

ثم يتكئ الشاعر على التوازي العمودي لخلق بؤر صوتية قارة تشد نثرية النص بعطف دائري :

يعرف أشكالهم

وصوت حناجرهم

وأشكال أفراحهم وأراضيهم التي قطعوها مثله

وظهورهم التي أبقوها مثله ..(24)

ثم تعود الصورة الجزئية بتكويناتها البسيطة وبلغتها المباشرة وبنسقها السردي لتصور حالة الانتفاض الجمعي، ففي التكوين الإنساني الواحد ساعة الهتاف تقبع شخوص أخرى وقضايا أخرى تعلن عن نفسها بذات مفردة واحدة .

لأنهم يدركون

أن لكل واحد حبيبا أسكنه في ضلوعه

وأخرجه للجميع في النور

فأصبح كل واحد .. أثنين

يعير كل واحد منهما للأخر حنجرته

ليريح صوته من إجهاد الهتاف (25)

المقطع الثالث : قصيدة اسمه الحقيقي وجهك

يعود هذا المقطع بنا إلى الرمز " البشارة" والتي جسدتها امرأة زائرة لمصر، وترك الشاعر للنثر أن يحتل المشهد كاملا باسترسال مطلق وبإبانة أخرجت النص عن مستوى الشاعرية وحتى هذا التوازي في ثلاثة فواصل

ربما تكون البشارة كلمة عادية

ربما يكون الأمل الذي شربته من ملامحك ارتجاليا

ربما تكون النتيجة التي أكتسبتها طبيعية قياسا بكفاح شعب بكامله (26)

لم يلملم تلك النثرية التي بسطت نفسها في جسد المقطع .. وحتى نكون موضوعيين في الحكم على هذه القضية بالذات فان أغلب قصائد النثر المصرية نأت بنفسها عن التصوير والمجاز أو التخييل، وتقنيات الخطاب الأخرى من تناص، وقناع، وتمثلات، وثيم فلسفية، على العكس من مثيلاتها في العراق ولبنان والمغرب العربي؛ واستعاضت عن كل هذا ببناء مفاهيم شعرية جديدة تربط بينها بلغة مباشرة عادية وكأنها تعقد علاقات هادئة بين الجمل .. وهذا ما حدث في هذا المقطع، إذ يعقد الشاعر بين البنى صلات مجاورة عطفا ووصلا حتى يقرن التحام الرمز بالثورة .

المقطع الرابع: قصيدة فرصة سعيدة :

يستمر هذا المقطع باللغة المباشرة نفسها إذ لم يتكئ الشاعر على إي نسق للبناء الصوتي بل ترك الأمر كله لبناء الصورة الجزئية، في استحضار الرمز، وعاضد ذلك من خلال البنية الدينامكية (المتحركة) المجسدة بالأفعال المضارعة والممدود التي أعطت دفقا أفقيا عوض غياب التوازي العمودي .

ولكن أهم ما يميز هذا المقطع تلك الرؤيا الإستشرافية المتجسدة بفعل الأمر التحذيري " انتبه " الذي سجل بؤرة توتر كبرى في النص لأنه أول فعل أمر نصادفه في نص الشاعر وإن كانت هذه الرؤيا هي رصد استباقي في زمن الحدث إلا إنها تؤكد لنا إن الشاعر كان يتكئ على تشكيلات السرد في بيان عاطفته ((فالسرد هنا لا يمضي في طريق ممتد، لكنه يتخذ شكل تموجات دلالية

تنتجها الذاكرة وبالتالي، فان المضمون لا يتأسس على نمو الدلالات، بل على تجاوز المفردات)(27) ليشدّ بها أجزاء نصه، ولتكون بدائل تعويضية عن غياب الأثر الصوتي .

لأن خاتما فضيا في اليد كنت تلعبين فيه طيلة السهرة

قال لي : ليس بعد، فانتبه!

على أي حال

أريد منك أن تساعديني في أن أقولها بما يناسب حالتك .

ويكمل هنا الشاعر البناء الدائري بقفلة تلاقي عتبة نصه المعنون" بما يناسب حالتك " لينهي قصيدته موثقا للثورة شعرا.

الخاتمة

وأخيرا بعد انتهاء رحلة البحث مع التقنيات التعويضية في قصيدة النثر/ "بما يناسب حالتك" يمكننا القول : إن هذه القصيدة اعتمدت على اللغة الواضحة البعيدة عن التعقيد والغموض والتلغيز والتشفير، فضلا عن أن تشكيلات الصورة الجزئية كانت متناغمة مع اللغة تناغما تصاعديا، لذا جاءنا هذا الاسترسال في الجمل الشعرية وإعادة إنتاجها صوتيا من خلال التوازي العمودي وهذا ما أعطى دفقا شعوريا في كل مقطع، وعلى الرغم من أن القصيدة جاءت طويلة لتعدد المقاطع فيها إلا إنها أتسمت بتكثيف الفكرة المجسدة بالرمز، وان كان مقياس أنسي الحاج في الحكم على قصيدة النثر بـ " التكثيف، التوهج ، المجانية" ،فان نص محمد سعد شحاته، كان مجانيا، فالغائية غائبة عن مقاصده، والذاتية تحكم جدل العلاقة في النص كله، والنص متوهج بفعل دينامية البناء الجملي الحاضن للانفعال العاطفي الهادئ .

وبعد هذا فإن " بما يناسب حالتك" نص تجريبي مجازف، ساكن الفواصل، شعري المتن والبناء، وأن حاولت النثرية الزحف لتحتل بعض الفواصل، فالشاعر أعادها لبنيتها الشعرية مرة أخرى بما يمتلك من أدوات تشكيلية، وتقنيات صوتية شدت أجزاء النص وقدمته كقصيدة نثر بامتياز .

الهوامش والإحالات

(1) ينظر : قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا ،سوزان برنار ترجمة د.زهير مجيد مغامس، دار المأمون،42،1993- 47.

(2) ينظر :المصدر نفسه : 28

(3) مجلة الأديب المعاصر،(مجلة فصلية تصدر عن الاتحاد العام للأدباء والكتاب في القطر العراقي) ع/41/ كانون الثاني/1990: مقال: قصيدة النثر في الأدب الانكليزي، د. عبد الستار جواد، كليو الآداب ، جامعة بغداد: 48

(4) سأم باريس(قصائد نثر)، شارل بودلير، ترجمة: بشير السباعي، منشورات الجمل، كولونيا(ألمانيا) – بغداد– العراق، الطبعة الأولى، 2007م: 6.

(5) ينظر: قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا، سوزان برنار، ترجمة: د. زهير مجيد مغامس، مراجعة د.علي جواد الطاهر، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، آفاق الترجمة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ،1999م: 260–261(الهامش رقم:23). و قصيدة النثر في الأدب الانجليزي ، مجلة الأديب المعاصر:51.

(6) ينظر: قصيدة النثر في الأدب الانجليزي، مجلة الأديب المعاصر:46. و قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا:26–28.

(7) ينظر: قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا:67.

(8) المصدر نفسه:29.

(9) ينظر: المصدر نفسه:43.

(10) آرتور رامبو، الآثار الشعرية:107.

(11) ينظر: قصيدة النثر من التأسيس إلى المرجعية: 126.

(12) ينظر: أثر التيارات الفكرية و الشعرية الغربية في الشعر العربي الحديث، 1800–1970، س.موريه، ترجمة: د. شفيع السيد و د. سعد مصلوح، راجعت الترجمة و نقحتها: لبنى صفدي عباسي، مكتبة كل شيء، حيفا ، الطبعة الثانية ، 2004م: 363.

(13) ينظر: حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر، كمال خير بك، ترجمة: جماعة من المترجمين، دار الفكر، بيروت، 1982م: 60. و ينظر: قصيدة النثر في الأدب العربي المعاصر، سرور عبد الرحمن عبد الله، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى مجلس كلية التربية (ابن رشد) جامعة بغداد، 1996م: 19.

(14) ينظر: أفق الحداثة و حداثة النمط، دراسة في حداثة مجلة (شعر)، بيئة و مشروعا و نموذجا، سامي مهدي، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، بغداد، 1988م:23–24. و النفخ في الرماد، د. عبد الواحد لؤلؤة، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثانية، بغداد، 1989م: 25. و الرحلة الثامنة، جبرا إبراهيم جبرا، المكتبة العصرية، بيروت، 1967م: 18.

(15) ينظر: في قصيدة النثر (مجلة شعر): 81–82.

(16) ينظر: قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا:64 وما بعدها.

(17) ينظر: إشكاليات قصيدة النثر: 526-527.

(18) محمد سعد شحاتة شاعر وصحفي وباحث أكاديمي، حاصل على شهادة الدكتوراه فلسفة في اللغة العربية وآدابها من جامعة عين شمس، وصدر له من قبل ديوانا قصائد نثرية هما «هوامش خارج متن»، وأيام عادية»، كما أصدر كتابين هما «العلاقات النحوية وتشكيل الصورة الشعرية عند محمد عفيفي مطر»، و«النظم والتأويل في الفكر البلاغي العربي».

(19) ديوان بما يناسب حالتك : 5

(20) الإبهام في شعر الحداثة، د.عبد الرحمن محمد القعود، عالم المعرفة، الكويت ، 2002: 318

(21) الديوان ، بما يناسب حالتك : 8

(22) قصيدة النثر من التأسيس إلى المرجعية، عبد العزيز موافي،مكتبة الأسرة، 2006 : 155

(23) الديوان ،بما يناسب حالتك : 11

(24) الديوان ،بما يناسب حالتك : 11

(25) الديوان ،بما يناسب حالتك : 12

(26) الديوان ،بما يناسب حالتك : 12-13

(27) قصيدة النثر من التأسيس إلى المرجعية: 270

Compensatory techniques in a poem (to suit your situation) to the Egyptian poet Mohammed Saad Shehata

A study in prose poem –-

Dr. wasan Hussein lilo

Department of Arabic Language / College of basic Education

Almustansaria university

A poem (as appropriate to your situation) of the poems of modern Arabic literature, which is known as (poem prose) deals with the poet events of the revolution of Egypt, which took place on January 25, 2011 The study included a theoretical approach, and then an applied study, including compensatory techniques and technical alternatives, On the rhythm of the voice and the included weight and rhyme, and that through the silence of the poet on the symbolism and imagination expressing the poet's self to take them objectively equivalent to love and revolution. Mohammed Saad Shehata, a poet Egyptian contemporary, academic and journalist.